ليبيا وبلاد الحجاز : بين أقلام المؤرخين وعيون الرحالة

إعداد

أ.د/ مجدى عبد الجواد علوان عثمان

أستاذ الآثار والعمارة الإسلامية
وكيل كلية الآداب – جامعة أسيوط

تميزتمظاهر العمران في الحضارة الإسلامية بوجه عام بأنها في الغالب الأعم : حضارة مدن ، ولهذا لم يستعمل العرب لفظة "حضارة " بقدر ما استعملوا لفظتي : " مدنية " و" تمدن"، وهو مانجده على سبيل المثال في كتابات رائد علم الاجتماع العلامة: ابن خلدون ، ويتضح لنا ذلك في كتابات المؤرخين والرحالة عن المدن الإسلامية سواء تلك التي نشأوا وعاشوا فيها ، أو تلك التي زاروها وكتبوا عنها.

وقد حرص كثير من مؤرخى الحضارة الإسلامية أن يؤرخوا لبلادهم ومدنهم الكبرى والصغرى، ولا نكاد نجد مدينة من مدن العالم الإسلامى على امتداده وسعته لم يؤلف في تاريخها مؤلف، حيث تشير المصادر التاريخية إلى ذلك، ومن بين هذهالمصادرعلىسبيلالمثاللاالحصر:ابنالجوزي : فضائلالقدس ، ابنالحسين (يحيى) : غايةالأمانيفيأخبارالقطراليماني، ابنالخطيب (الوزيرمحمدلسانالدين) : الإحاطةفيأخبارغرناطة،ابنالدييغ (أبوعبداللهعبدالرحمن):بغيةالمستفيدفيتاريخمدينةزبيد،ابنالعديم (كمالالدينأبوحفصأوأبوالقاسمعمربنأحمدوالمعروفبابنأبيجرادة) : زبدةالحلبمنتاريخحلب،ابنبسام (أبوالحسنعلي) : الذخيرةفيمحاسنأهلالجزيرة،ابنعذاري : البيانالمغربفيأخبارالأندلسوالمغرب،ابنعساكر (أبوالقاسمعلىبنالحسين) : تاريخمدينةدمشق ، ابنالقلانسي (حمزةبنأسدبنعليبنمحمدالتميمي) : تاريخدمشق ، الأزرقي (أبوالوليدمحمدبنعبداللهبنأحمدت 204هـ) : أخبارمكةوماجاءفيهامنالآثار، أبوالفداء : اليواقيتوالضَرَبفيتاريخحلب، الألوسي (أبوالثناءشهابالدينالسيدمحمود):نشوةالشمولفيالسفرإلىاسلامبول،السخاوي : التحفةاللطيفةفيتاريخالمدينةالشريفة، القزويني : آثارالبلادوأخبارالعباد، محبالدينالحموي : حاديالأظعانالنجديةإلىالديارالمصرية ، الجزنائي (أبوالحسنعلي): زهرةالآسفيبناءمدينةفاس ، المقري (أحمدبنمحمدبنيحيىبنعبدالرحمن) : نفحالطيبمنغصنالأندلسالرطيب،السهمي (أبوالقاسمحمزةبنيوسف) : تاريخجرجان،النرشخي (أببكرمحمدبنجعفر) : تاريخبخارى،شكيبأرسلان (الأمير) : الحللالسندسيةفيالأخبارو الآثارالأندلسية.

وقد تميز هؤلاء الرحالة - العرب والأجانب -بالعين الفاحصة والذاكرة المتقدة أمثال ابن جرير وابن بطوطة والنابلسي وغيرهم –حيث أرَّخوا في كتاباتهم الجامعة لكثير من المدن ، وتضمنت هذه الكتابات المواقع الجغرافية وطوبغرفية هذه المدن وآثارها ، وطبائع أهلها وعاداتهم وأحوالهم ، حتى إن القارئ لوصف إحدى هذه المدن يكاد يقف على شكلها وخططها وحاراتها ودروبها .

ومنهمعلىسبيلالمثال : ابنبطوطة (محمدبنعبداللهاللواتيثمالطنجي) ،الرحلةالمسماةبتحفةالنظارفيغرائبالأمصاروعجائبالأسفار،وابنجبير (أبوالحسينمحمدبنأحمد)،الرحلةإلىالشرق،النابلسي (عبدالغنيإسماعيل)،الحقيقةوالمجازفيالرحلةإلىبلادالشاموم صروالحجاز،جوزيفبتس،رحلةجوزيفبتسإلىمصرومكةالمكرمة،رتشارد . ف. بيرتون،رحلةبيرتونإلىمصروالحجاز،محمدزيلليدرويش (المعروفخطأًبأولياجلبي) ،سياحتنامهمصر،محمدلبيبالبتنوني،الرحلةالحجازيةلوليالنعمالحاجعباسحلميباشاالثانيخديومصر،ناصرخسروعلوي،سفرنامه .

وقد شهدتليبيابمدنها القديمة وصحرائها الممتدة شرقًا وغربًا نشاطاًملحوظاًفيمجالالأدبالرحلاتالأوروبية،حيثكانتموضعاهتماممنقبلرحلاتالأوروبيين، وذلكبغرضمعرفةطبيعةهذهالبلادومقدراتها،وتعتبرهذهالرحلاتمصدراًمهماًلدراسةالآ

ثار والتراثالحضاريفيليبيا عبر العصور ،وذلكمنخلالكتاباتهؤلاءالرحالةووصفهملماشاهدو همنتراثمعماريوفنيفيشتىأرجاءليبيا،وقدجابتهذهالرحلاتجميعأرجاءليبياشرقاًوغرباًوجن وباً،وأصبحتمدوناتهاالتفصيليةتركيزةأساسيةفيالاستعمار الغربيو البعثاتالتبشيريةفيمابعد - ليسلليبيافحسب -

بللمعظمدولأفريقيا،وقدتعددتجنسياتهؤلاءالرحالةوتخصصاتهمفكانمنهمالطبيبو العسكري والفيزيائيورجلالدينالمسيحيو الموظفو المستشرق،ومنبينهؤلاءالرحالة :

الألمانيفريدريكهورنمان 1772-1801م،والإيطاليباولوديلاشيلا 1792 - 1854م،والاسكتلنديألكسندرجوردينلاينج 1794-1826م،والإنجليزيالنقيبجورجفرانسيسليون،قامبرحلةإلىإقليمفزانسنة 1818-1819موأعدتقريراًمفصلاًبتلكالرحلة،والألمانيالطبيبجير الدرولفس 1831-1897م،والطبيبالألمانيجوستافناختيجال 1834-1885موالذيقامبعدةرحلاتإلىبلادالسودانو أواسطإفرقيا،وكانتأهمرحلاتهمنطرابلسإلىفزا نإلىدارفورثمالقاهرة،والألمانيغوتلوبأودلفكراوزه 1850-1938م،والقسالإنجليزيجيمسريتشاردسون،والسويسريهانسفيشر الذيكانموظفاًوقامبرح لتهسنة

1906م،والأسكتلنديجيمسهاميلتونالذيكانمولعاًبالرحلاتفيمنطقةشمالإفريقيا،وكانيجيداللغةالعربية،والمستشرقالألمانيهنريشبارثالذيقامبرحلةمنطرابلسإلىبلادالسودانبرفقةأودلفأ ومزولينج،وجيمسريتشاردسون .

أما المملكة العربية السعودية (بلاد الحجاز) فقد شهدت نشاطًاملحوظًافيمجالأدبالرحلاتالأوروبية؛حيثكانتموضعاهتمامممنقِبَلرحلاتالأوروبيين ، وذلكبغرضمعرفةطبيعةهذهالبلادومقدراتها،وبخاصة الحرمين الشريفين،وقد رصدت هذه الرحلاتأهم مظاهر الآثار والتراثالحضاريفيالمملكة العربية السعودية عبر العصور ، وذلكمنخلالكتاباتهؤلاءالرحالة،ووصفهملماشاهدو همنتراثمعماريوفنيفيشتىأرجاءالمدن السعودية، وقدجابتهذهالرحلاتجميعأرجاءالسعوديةشرقًاوغربًاوجنوبًا، وما جاورها من البلدان العربية كاليمن وعمان وبلاد الشام.

وقد حاز الحرمينالشريفين (حرممكةوالمدينة-شرفهماللهتعالى)– علىقصبالسبقبينالرحالةالعرب،باعتبارها :

أقدسو أشرفالمدنعلىالإطلاق،ومنالطبيعيأنيخصصالرحالةالعربو المسلمينقسطاًوافراًمنكتا باتهمعنهذهالزيارةالمقدسة -لكنأنيتناولهاالرحالةالغربيينفهذاأمر عجيب.

ومنأهمالرحالةالذينزاروا المدينةالمنورةوكتبواعنهاالرحالةجوزيفبيتس،الذيزارمصروم كةالمكرمةوالمدينةالمنورة،وقامبرحلتهعام 1091هـ /1680م،وهوأولإنجليزيوثانيأوروبيفيالتاريخيزور المدينةالمنورة،كماأنهأولرحالةفيالتا ريخالحديثيصفطريقالغربيأودربالحجاجمنبلادالمغربمروراًبمصرحتيمكةوالمدينة .

ومنبينهؤلاءالرحّالة جونلويسبيركهارت (1784-1817)، ولدفيلوزانبسويسراباسميوهانلودفيغبيركهارت.

وتُعدروا ياتهعنرحلاتهفيالشرقالأوسطفيمطلعالقرنالتاسععشرضمنأولىالأوصافالأوروبي ةلسورياوجزيرةالعربومصروالسودان.

التحقبيركهارتبجامعةكامبريدجحيثدرساللغةالعربيةوالإسلام؛لإعدادنفسهلمسيرةمهنيةك مستكشف-مغامر،وذلكبعدأنأنهىدراستهالجامعيةفيسويسرا،
وقضىأوائلالعشرينياتمنعمرهفيسوريا،حيثأتقناللغةالعربية،وأثبتنفسهكعالِمفيالدينالإسلام يوكمتصوِّف. وفيعام 1814 - 1815 سافرإلىالغربشبهالجزيرةالعربية.
ويُعدكتابه"ترحالفيجزيرةالعرب"واحدًامنعدةأعمالأنثربولوجيةوجغرافية،كتبهابيركهار تقبلأنتوافيهالمنيةسريعًاوهو في سن 33 عامًابسببمرضأصابهفيالقاهرة.
ويزخرالفصلالذييحملاسم " ملاحظاتعنسكانمكةوجدة" بالتفاصيلوالآراءحولالتقاليدالعائلية،والقبائل،ومعاملةالعبيد،والتجارةاليومية،وأياماالأعي اد،والعلاقاتمعالجنسياتالأخرى،والحياةالفكرية.
وكانتمكةوكلمنطقةالحجازوقتزيارةبيركهارتتحتحكممحمدعليباشا والي مصر والحاكمالعامنيابةًعنالسلطانالعثماني. وقدأثّرتهزيمتهللحركة الوهابيةعلىالحياةاليوميةفيالمنطقة. وتضمن كتاب بيركهارتدراسات علمية عن سوريا،وبلادالشام،وسيناء،ووادياالنيل؛وملاحظاتعنالبدووالوهابيين؛ومجموعةمنالأمثا لالعربية،أوالمصريةبالأساس،التيجُمعتمنيومياتهالميدانيةبعدوفاته، فضلاً عنطرقالتجارةوالحجالخارجةمنمكة.
وقد
نُشر هذاالكتابتحترعايةالجمعيةالإفريقيةلتعزيزاستكشافالأجزاءالداخليةلإفريقياالتيتأسست فيإنجلترا عام 1788ملرعايةاستكشافإفريقياوالقضاءعلىتجارةالعبيدالأفارقة، وصدرفيمجلدينطبعافيلندنسنة 1829م،
ويحتويعلىالعديدمنالخرائطالمهمة،وتمتترجمتهللعربيةسنة 2005م.
ويعتبربيركهارتمنأهمالرحالةالأجانبالذينكتبواعنمكةالمكرمةكتاباتعلميةمستفيضه، وأصبحكتابهالمذكورمصدرًامهمًّاللكلالرحالةالذينجاءوامنبعدهمثل الرحالة بيارد تايلور، وإلى جانب الكتاب المذكور لهفيرحلات إفريقياكتاب (رحلاتفيبلادالنوبةوالسودان).
وقد سجلت كتب الرحالة الأجانب أدق التفاصيل في مدوناتها ،
ونشيرإلىمشاهداتلمناسكالحجومعالمهفيمكةوالمدينة،تمثلتفيرؤيةالرحالةالأديبوالشاعرالأ مريكيبيياردتايلور (Bayard Taylor) والمدونةعام 1310هـ/1892م،حيثقامفيهابتجميعأهمماكُتِبَعنالحجومناسكه،وطبيعةالمدنالسعودية (مكةالمكرمة،والمدينةالمنورة،وحائل،وبريدة،والرياض،ونجد،والطائف،وجدة،وينبع) ،فضلًاعنطبائعأهلها،وتراثهاالحضاري،معتمدًافيصياغاتأدبيةرائعةعلىكتاباتأهمالرحالةا لأوروبيينالذينزاروالمملكة،وسجلوامناسكالحجومعالمهالدينيةبكافةتفاصيلها،ومنهمرحل ةالرحالةالسويسريالأشهر: (جونلويسبوركهارت- John Lewis Burckhardt (1784-1817))،والرحالةالإنجليزي (ريتشاردفرانسيسبيرتون – (Richard 1824-1890) (Francis Burton).

وقد أورد (تايلور)
ثلاثلوحاتفوتوغرافيةتشيرإلىطبيعةجبلعرفات،والمدينةالمنورة،وأداءالحجاجلمناسكالحج ،تشيرأولىهذهاللوحاتإلىالوقوفالحجاجبجبلعرفاتوطبيعتهاالجغرافية،ومعسكرالحجيجوتجمع اتهمفيخياممخروطيةومربعة،بينماتشيرالوحةالثانيةإلىالمدينةالمنورةمنالناحيةالشرقية،و يُرَىفيهاالجبالالمحيطةبها،وأسوارالمدينةوبواباتها،والمسجدالنبوي - شرَّفَهُالله - ومآذنةالثلاثةالسامقة،ومعسكرالحجيجوأمتعتهم،وأماكنإقامتهمفيخياممخروطية،أماالوح ةالثالثةفهيللمدينةالمنورةمنالناحيةالغربية،ويرىمنخلالهاالبيوتوأشجارالنخيل .

وقدأشارتايلورفيكتابهإلىملابسالإحرامواصفًاإياهاوصفًادقيقًاموضحًاكيفيةارتدائها،وكذلك وصَفَالمسجدالحرام - شرَّفَهُالله -
ومواد بنائه،ونعتهكمايسميهالمسلمونببيتالله،كماأشارإلىتفاصيلالوقوفبعرفهذاكرًاالعبارةال دعائية (لبيكاللهملبيك)،كماأشارإلىزيارةالحرمالنبوي -شرَّفَهُالله-.

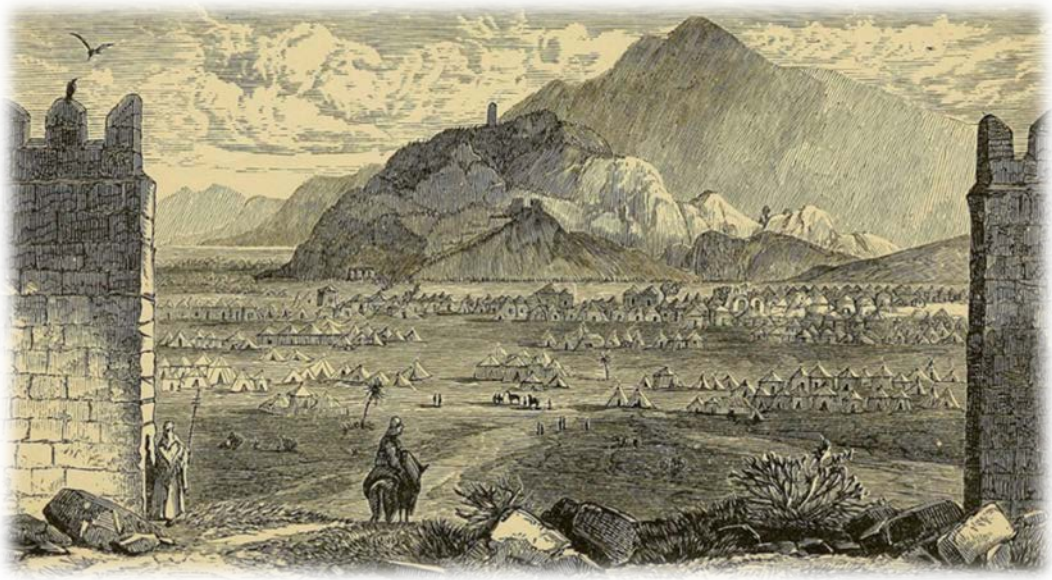

(لوحة 1) بقايا أسوار مكة ، وجبل عرفات خارج حدودها بنحو 12 كيلومتر – لوحة سنة 1310هـ / 1892م عن–
Bayard Taylor, Travels in Arabia

(لوحة 2) المدينة المنورة والأسوار المحيطة بها – لوحة سنة 1310هـ / 1892م

عن– Bayard Taylor, Travels in Arabia